

شمس الهدى والإيمان



جابر بن حيان

1

# علماء العرب





# الهدى والبيان

## علماء العرب

1 - 16 جزءاً

## جابر بن حيان

تأليف

محمد كمال

## جابر بن حيان

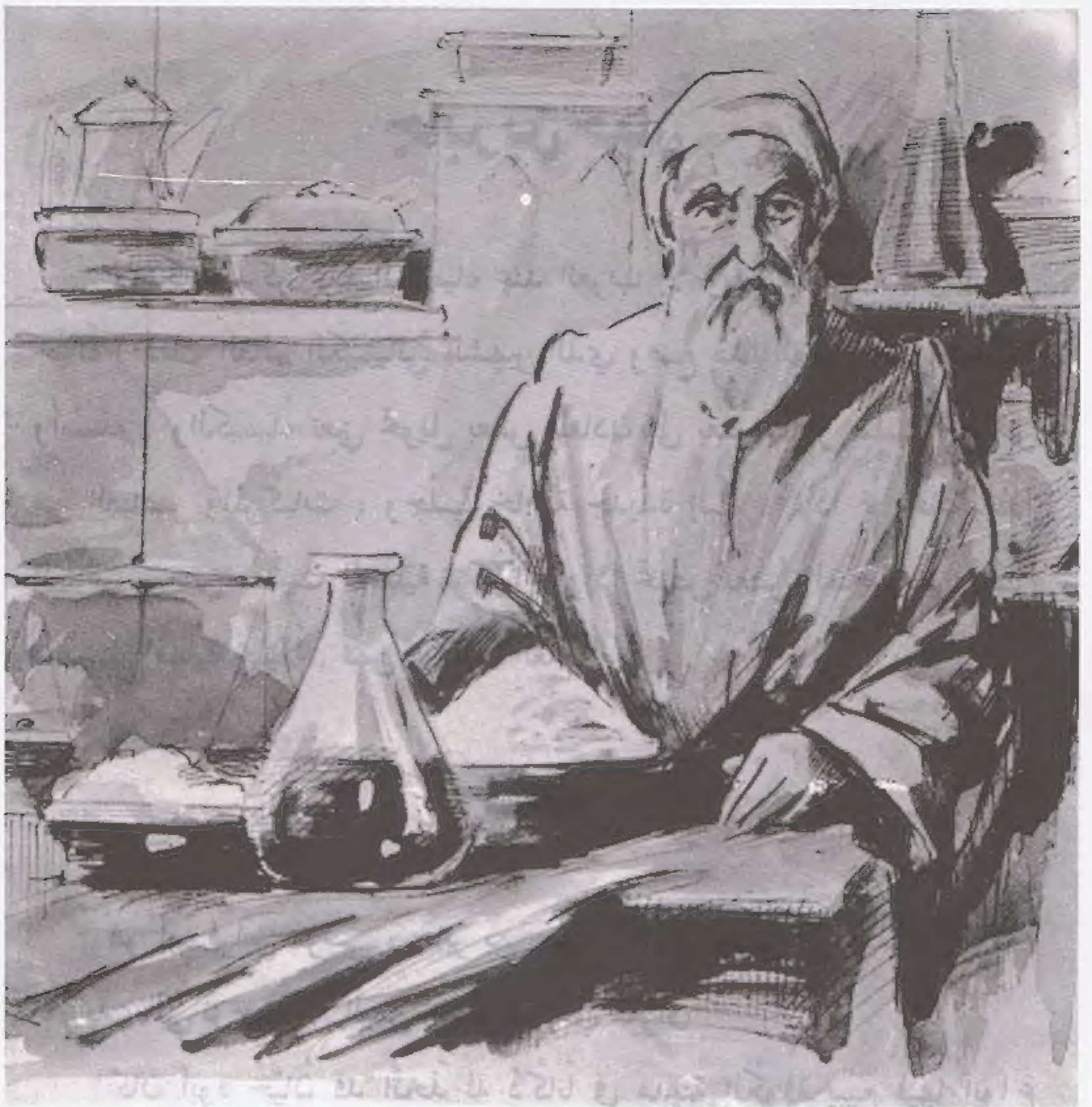
لا يكاد يُذكر علم الكيمياء عند العرب إلا ويُذكر معه اسمُ جابر بن حَيَّانَ . ذلك العالم الكيمائي الشهير الذي وضع لهذا العلم الجليل دعائمه وأُسُسه . والكيمياء تعني تحويل بعض المعادن إلى بعض ، أو سلب الخواص من العناصر والمركبات ، وجلب خاصّة جديدة إليها . فإذا تمّ اتّحاد بعض العناصر ببعض سُمّيت العملية تركيباً ، وإذا تخلص بعض العناصر من بعض سُمّيت العملية تحليلاً . فمن هو هذا العالم ؟

### نشأته

هو أبو فراس موسى ، جابر بن حيان ، الذي ينتمي إلى قبيلة ( الأزد ) العربية ، التي نزلت من اليمن واستوطنت في العراق . كان أبوه حَيَّانُ قد اتَّخذَ له دُكَّاناً في مدينة الكوفة يبيع فيها أنواع الطيوب والعطور ، ولكنه مع ذلك كان شديد الاهتمام بالشؤون السياسية وأمور الحُكم ، لا يفتأ يجاهر بعدائه للأمويين وسُخطه عليهم ، فكان يقوم بجولات في البلاد العراقية والفارسيّة ، يحرّض فيها الناس على الأمويين ، ويدعو إلى العبّاسيين ، إلى أن بلغ في تجواله مدينة ( طُوس ) الخراسانية ، فهناك وضعت زوجته مولودها جابراً ، وذلك في سنة 120 هـ /

737 م .





في طريق العلم

أما أبوه حيّان فقد تمكن الأمويون ، بعد أن أدركوا خطره عليهم ، من القبض عليه ، فساقوه إلى السجن ، ثم حكموا عليه بالإعدام .



لم يكن أمام جابر ، وهو الفتى الذي عاش يتيماً ، إلا أن يُقبل على تعلُّم القراءة والكتابة ، شأنه في ذلك شأن سائر أترابه وأقرانه . ثم أطلَّ على مختلف جوانب الثقافة الإسلامية التي كانت شائعة آنذاك ، إلى أن ساقته الأقدارُ إلى رجلٍ من الأسرة الأموية ، هو خالد بن يزيد بن معاوية ، هذا الرجل الذي أعرض عن السياسة ونفر منها ، ونأى بنفسه عن ميدان الخصومة والتنافس بين أفراد بني أمية ، فصرف جُلَّ اهتمامه إلى العلم ولاسيما الكيمياء ، فكان يقول :

- ( عندما حُرِّمت من حقي في خلافة المسلمين ، وجدتُ خيرَ تعويضٍ في صناعة الكيمياء ، فعلمُ الكيمياء يمكن أن يُغنيَ الأصحابَ والأصدقاءَ ، فلا يُخوِّجهم إلى سلطان ) . وهكذا تفتحت عينا جابر على هذا العلم من ملازمته لخالد بن يزيد ، وقراءته لما صنَّفه خالدٌ في هذا المجال .

## الدولة العباسية

في عام 132 هـ انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، فرجع جابر إلى الكوفة ، حيث التقى بالإمام جعفر الصادق الذي ذاق هو وجماعته أشدَّ أنواع الاضطهاد والتضييق من الحكام الأمويين . ولكن الأمر تغير الآن ، وحظي الإمام جعفر وجماعته باحترام العباسيين ورعايتهم وتكريمهم .



ومع أن الإمام جعفرًا كان ذا مكانة دينية عالية وكان متبحراً في علوم الشريعة والحديث الشريف ، فقد كان مولعاً بعلم الفلك وعلم الكيمياء . فلزمه جابرٌ يأخذ عنه أصول هذا العلم ، ويستفيد من نظرياته وتجاربه ، كما أنه حظي لدى العباسيين بمثل ما حظي به أستاذه من رعاية وتكريم .

### في بغداد

أنشأ أبو جعفر المنصورُ مدينةَ بغدادَ ، وسماها مدينةَ السلام . فانتقلت إليها وفودُ العلماء ورجال الفكر ، واتسعت فيها مجالسُ العلم وحلقاتُ الأدب ، وغدت بذلك صرحاً حضارياً لا يماثله صرح في البلاد الإسلامية الواسعة . وكان جابرٌ من بين هؤلاء الذين أمّوا بغدادَ ، ليرويَ ظمأه إلى العلم والمعرفة .

وفي عهد هارون الرشيد ، أصبح للبرامكة نفوذٌ إداري وعسكريٌ ملحوظ ، حتى قيل : إن الفضل بن يحيى البرمكي اتخذ بخراسان جنوداً من العجم سماهم ( العباسية ) وجعل ولاءهم للعباسيين وحدهم . وبلغ عددهم خمسمئة ألف رجل . كان منهم في بغداد وخدّها عشرون ألف رجل . والبرامكة أسرةٌ فارسية قَدِمت من مدينة ( بلخ ) واتّصفت بالكرم والعلم . فازدادت سلطة أبنائها ، وتواصل نفوذهم ، وأصابوا الكثير من الشراء والجاه .





وانعقدت بين جابر وبين هؤلاء البرامكة صلة وثيقة ، ومودة حميمة .  
فقد حدث أن جارية ليحيى البرمكي كانت قد أصابها مرض شديد أدى إلى  
ضعف حالتها وتدهور صحتها ، وكان يحيى ولوعاً بها أشد الوَلع ، لأنها أثيرة  
لديه ، مستولية على قلبه ، فنظر إلى جابر بعينين ملؤهما الحسرة وقال له :



يا سيدي .. ماذا عندك ينفع علاجاً لحال هذه الجارية ؟ فنصحه جابر بأن يصب عليها الماء البارد ، ويسقيها بعض المسكنات . ولكن حالتها لم تتحسن ، فألح يحيى البرمكي في البحث عن علاج ناجع ، فقال جابر : كيف لي أن أصف لها الدواء السليم وأنا لم أرها لأصل إلى معرفة ما بها ؟ فقاما معاً إلى بيتها ، ووقف جابر يتأملها ويدرس حالتها ، وهي مشفية على الموت ، فسارع جابر ووصف لها دواءً مركباً من عدة مواد طبية ، فشربته الجارية ، وإذا بها تستعيد صحتها ، وتسترد نضارتها ، مما بعث الفرح في قلب يحيى ، فأهوى على قدم جابر يقبلها وهو معجب بهذا العالم الذي يصلح أن يُستفاد منه فكان يحيى كلما جلس إلى جابر سأل عن سر الأدوية وكيفية تركيبها سؤال التلميذ ، المتعطش إلى العلم ، إلى أن عرف أشياء كثيرة . ولكن ابنه جعفر بن يحيى كان أذكى منه وأعرف .

### في عصر الرشيد

كانت بغداد في عصر الرشيد ترفل في حُلل المجد والبهاء ، وتباهى على غيرها من المدن بكثرة مدارسها ومستشفياتها وقصورها وحماماتها ، وانتشار العلوم والآداب فيها ، واستتباب الأمن في ربوعها ، إذ كان الرشيد من الخلفاء المخلصين الورعين ، الماهرين في قيادة الجيش والقضاء على الفتن الخارجية والداخلية .



وكان جابر في ظل حُكم الرشيد يتدفَّق إنتاجه وتتلاحق تجاربه ،  
مسترشداً بأستاذه الإمام جعفر الصادق الذي كان يعتمد عليه في كثير من  
الأمور . فقد كان الإمام قد أنجز كتاباً من جملة كتبه القيِّمة ، وأراد أن يُنسخَ  
على ورقٍ جيّدٍ مقاومٍ للحرارة والاحتراق . فقام جابر يُجري تجاربه على  
أنواع الورق ، حتى توصل إلى خليطة يُصنع منها الورق المطلوب ، فنسخ  
الكتاب على هذا الورق ، ثم أقبل إلى أستاذه الذي تحلَّق حوله المريدون  
وطالِبُ العلم ، فحمل جابر الكتاب أمام أعين الجميع وقذف به في النار  
المتأججة وهو يتسم ، فهبَّ القومُ لإنقاذ الكتاب ، وكم كانت دهشتهم  
عظيمة حينما خمدت النار ، والكتاب على حاله لم يُصبْ بأي أذى أو ضرر .

### نكبة البرامكة

تفاقم أمرُ البرامكة واتسع نفوذهم ، واشتطوا في التدخُّل في شؤون  
الحُكم والدولة ، حتى أصبح هارون الرشيدُ يخشى على خلافته منهم ،  
لا سيما والناسُ يرون ما بلغه هؤلاء من الشراء الفاحش والجاه العريض  
والانغماس في الملذات من غير رادعٍ ولا رقيب .

ففي سنة مئة وسبع وثمانين قرَّر الرشيدُ أن ينقلب عليهم ، وأن يخلص  
الدولة منهم ، فلاحقهم ، وشتت شملهم ، وقتل مُعظمهم ، فتكبوا بذلك  
نكبةً لم يكونوا يحسبون لها أيَّ حساب . وفي ذلك يقول المؤرِّخ العلامة ابنُ  
خلدون :



- ( إنما نُكِبَتِ البرامكةُ لِمَا كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيدُ يطلبُ اليسيرَ من المالِ فلا يصلُ إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سُلْطانه ، ولم يكن له معهم تصرفٌ في أمور مُلكه ، فعظمت آثارهم ، وبعُدَ صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوا عمن سواهم من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابه ، وسيفٍ وقلم ) .

### أين المفرُّ؟

فوجئ جابرٌ بالمصيبة الكبرى والمحنة العظمى . فماذا يفعل ؟ وأصدقاؤه وخلائئه من البرامكة قد مُزَّقوا شراً مُمزَّقٍ ، وجرت في الشوارع دماؤهم غزيرة تملأ الفجاج ، فانقضت أيامهم ، وزال سُلْطَانُهم . وقد كانوا له عوناً وسنداً ، يُكرِّمونه ويُجلُّونه ، ويُشيدون بعلمه وفضله . ومع ذلك فهو يعرف مكانته المرموقة عند الرشيد ، ومنزلته السامية في قلبه . غير أن الشكوك والمخاوف لم تترك أمام جابر أن يختار إلا الهرب بنفسه والفرار بروحه .. ولكن ، إلى أين ؟

ها هو ذا يُمضي مدة من الزمن يتنقل في البلاد ، ويقطع السهول والوهاد ، ينتظر أن تنام عنه عيون الخليفة ، وأن تهدأ الثورة بعد طول اشتعال . وفي ذلك يقول ابن النديم :



- ( إن خوف جابر بن حيان دفعه إلى التنقل في البلدان ، لا يستقر به بلد ، خوفاً من السلطان على نفسه ) .



وفي سنة مئة وثمان وتسعين استقل الخليفة المأمون بالحكم ، وكان  
أفضل رجال بني العباس علماً وحزماً وهيباً وشجاعة ، وسؤدداً وسماحة ،



فقد جمع العلماء من الآفاق . وبرع في الفقه والفلسفة وعلوم العربية ،  
وانتصر العدل في زمانه . وخدمت الفتنة ، فاستراحت نفس جابر لذلك ،  
وآثر أن يُقيم في الكوفة ، يعكف على عمله وكتاباتهِ في علم الكيمياء ، بعد  
أن أضناه التنقل والترحال ، فكان أن أنتج في هذه المدة ما يزيد على ثمانين  
كتاباً من الكتب الكيميائية القيّمة .

## المنهج العلمي

أصبح علم الكيمياء على يدي جابر بن حيّان علماً مكتمل العناصر  
واضح الحدود ، والتحصيل النظري فيه يجب أن يسبق التجربة والتطبيق ،  
لأن أي خطأ في التجربة قد يؤدي إلى كوارث لا تُحمد عُقباها . ولذلك  
حرص جابر على أن يضع للمشغلين بهذا العلم منهجاً واضحاً ودستوراً بيّناً  
يستعينون به ، ويعتمدون عليه . ويمكن أن يتلخص هذا المنهج بالعناصر  
التالية :

- 1 - تعيين الغرض من التجربة قبل بدء العمل فيها .
- 2 - على صاحب التجربة العلمية أن يفهم الإرشادات فهماً جيداً .
- 3 - ينبغي تجنّب ما هو مستحيل ، وما هو عقيم لا يثمر .
- 4 - العناية باختيار الزمن الملائم ، والفصل المناسب لإجراء التجربة العلمية .

- 5 - يجب أن يكون المعمل الكيميائي في مكانٍ معزول .



6 - يجب أن يختار العالم الكيميائي أصدقاءه ممن يثق بهم حتى لا يستغلوا معرفتهم ببعض المعلومات السطحية في علم الكيمياء في أغراض غير خُلقية .

7 - يجب أن يكون صاحب التجربة متفرغاً لها ، حتى يوفّي العمل حقه من الاهتمام .

8 - الصبر والكتمان شرط من شروط الباحث العلمي .

9 - الدأب عنصر من عناصر النجاح ، فالإخفاق مرة ومرتين وثلاثاً لا يعني التوقف واليأس .

10 - على الباحث أن يكون واعياً ، فلا تخذعه الظواهر ، ولا يتسرّع الوصول من تجاربه إلى نتائج غير صحيحة .

ولقد كان جابر حريصاً كل الحرص على كرامة العلم وقدره ، فلا يجوز في رأيه أن تُفتح أبواب العلم إلا لمن يُخلص له ويَجِدُّ في طلبه ، وكأنه يتمثل قول الشاعر :

ومن منح الجهال علماً أضاعه      ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وخير دليل على ذلك أن طالباً من طلابه يسمي الجلدكي أراد دراسة الكيمياء على يدي جابر ، فأخذ جابر يماطله ويراوغه ليتخلص منه ، لكن الجلدكي ألح عليه في الطلب ، فقال جابر :

- ( إنما أردت أن أختبرك ، وأعلم حقيقة مكان الإدراك منك . ولتكن من أهل هذا العلم على حذر ممن يأخذه عنك . واعلم أنه من المفترض علينا





فقدان هذا العلم ، وتحريم إذاعته لغير المستحق من بني نوحنا ، وألاً نكتمه  
عن أهله ، لأن وضع الأشياء في محالها من الأمور الواجبة .



## المنهج التربوي

أخذ طلابُ العلم يتهافون على جابرٍ ، ويزدحمون في مجالسه ، ليقتبسوا من علمه ويستفيدوا من تجاربه ، حتى تكونَ لديه منهجٌ تربويٌّ مُتَقَنٌ ، يحدّد العلاقة بين الأستاذ والتلميذ ، بحيثُ يحصل النفعُ وتحقق الفائدة . فهو يقول :

- ( فأما ما يجب للأستاذ على التلميذ فهو أن يكونَ ليناَ قَبُولاً لجميع أقواله من جميع جوانبه .. ذلك أن منزلةَ الأستاذ هي منزلةُ العلم نفسه . فإذا لم يكنِ التلميذُ على هذا المقدارِ مِنَ الطاعة لأستاذه ، أعطاه الأستاذُ قُشُورَ العلم وظاهره ) .

وأما ما يجب للتلميذ على أستاذه فهو ( أن يمتحنَ الأستاذُ قريحةَ المتعلّم ، ومقدارَ ما فيه من قبول ، وقدرته على حفظ ما تعلّمه . فإذا وجدَ الأستاذُ تلميذه قَبُولاً ، أخذَ يَسْقِيهِ أوائلَ العلوم التي تتناسبُ مع قدرته على القبول ، وتتناسبُ مع سنّه وخبرته . ولم يزلْ به يُلقّنه العلمَ أولاً بأوّل ، وكلّما احتمل الزيادة زادَهُ ، مع امتحانه فيما كان قد تعلّمه ، وإن وجدَهُ يَنسى ويتخبلُ في حفظه أنقصَ المقدارَ ، وعائبه على ذلك عتاباً كالإيماءة من غير إمعانٍ في التصريح ) .



## منجزات جابر

خلف جابر مجموعة من الكتب والأبحاث ، أهمها : أسرار الكيمياء ، وعلم الهيئة ، والسموم ، والخمائر ، وصندوق الحكمة .. وهذه الكتب تؤلف موسوعة علمية اشتملت على بيان مركبات كيميائية كانت مجهولة قبله . فهو أول من وصف أعمال التقطير والتبلور والتذويب ، واستحضر حامض الكبريتيك ، وكربونات الصوديوم ، وكربونات البوتاسيوم ، واستعمل ثاني أكسيد المغنيسيوم في صنع الزجاج . وكان لأبحاثه في السموم ودفع مضارها أهمية كبرى ، لما بين الطب والكيمياء من صلة وثيقة . كل ذلك جعل من جابر بن حيان واحداً من أشهر اللامعين في تاريخ العلوم عند العرب .



# علماء العرب

سلسلة قصصية تروي الجانب الهام من حياة علماء العرب الذين كانوا وما زالوا مجال العزة والفخر.



- 1 - جابر بن حيان
- 2 - زرياب
- 3 - الكندي
- 4 - الجاحظ
- 5 - أبو بكر الرازي
- 6 - الفارابي
- 7 - ابن سينا
- 8 - الحسن بن الهيثم
- 9 - البيروني
- 10 - ياقوت الحموي
- 11 - الشريف الإدريسي
- 12 - ابن الأثير
- 13 - ابن بطوطة
- 14 - ابن خلدون
- 15 - الجبرتي
- 16 - عبد الرحمن الكواكبي

تأليف: محمد كمال  
الغلاف: هيثم فرحات

K1G1-16

جميع الحقوق محفوظة لدى دار ربيع للنشر ، لا يجوز الطبع أو النسخ  
أو التصوير بأي شكل أو طريقة إلا بموافقة خطية من مالك الحقوق .  
تم نشرها من قبل دار ربيع للنشر - حلب ، سوريا

RP © 2005 Rabie Children Books

All rights reserved , and no part of this publication may be  
reproduced or transmitted in any form or by any means , electronic  
or mechanical including photocopy recording or any other  
retrieval system , without written permission of the rights owner .  
Published by Rabie Publishing House Aleppo , Syria  
P.O.Box : 7381 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153  
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com



6 214001 450779